اللحن عند العرب

obeikan.com

obeikan.com

اللحن

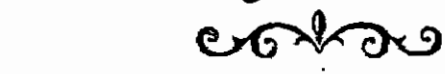

اللحن له ضروب كثيرة ، ولكن أشهرها قول ينساب من إنسان إلى إنسان فيدرك مضمونه ويخفى هذا على غيره.

ويعرّفه ابن رشيق القيرواني في «العمدة» بقوله:

«كلام يعرفه المخاطب بفحواه وإن كان على غير وجهه».

وواضح من كتب اللغة والأدب أن العرب الجاهليين والإسلاميين عرفوا اللحن بشكل أو بآخر، فقد ورد ذكره في القرآن الكريم ، يقول تعالى: ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾ (سورة محمد – ٣٠).

وقد فسر الإمام البيضاوي هذا بقوله «لحن القول أسلوبه وإمالته إلى جهة تعريض وتورية ، ومنه قيل للمخطئ: لاحن لأنه يعدل الكلام عن الصواب».

وفي مادة «لحن» من معجم لسان العرب : «لحن له يلحن قال له قولا يفهمه عنه ويخفى على غيره لأنه يميله بالتورية عن

الواضح المفهوم . ومنه قولهم لحن الرجل فهو لحن إذا فهم وفطن لما لا يفطن إليه غيره ، وقول الطرماح :

وأدت إلى القول عنهن زولة تلاحن أو ترنو لقول الملاحن

أى تكلم بمعنى كلام لا يفطن له ، ويخفى على الناس غيرى».

وسُمى اللحن «المحاجاة » لدلالة الحجا عليه ، وضرب ابن رشيق مثلا بقول شاعر يحذر قومه:

خلوا على الناقة الحمراء أرجلكم والبازل الأصهب المعقول فاصطنعوا

إن الذئاب قد اخضرت براثنها والناس كلهم بكر اذا شبعوا

«أراد بالناقة الحمراء الدهناء وبالجمل الأصهب ، الصمان ، وبالذئاب الأعداء . يقول : قد اخضرت أقدامهم من المشى فى الكلا والخصب ، والناس كلهم إذا شبعوا طلبوا الغزو فصاروا عدوا لكم ، كما أن بكر بن وائل عدوكم»

وقد ارتبط اللحن بالفطنة والذكاء وقوة اللمح، جاء في معجم «أساس البلاغة» للزمخشري: «فلان ألحن من صاحبه، وفلان يلاحن الناس يفاطنهم ، ويغالبهم لفطنته ودهائه، وعند الزمخشري أيضًا : «هو لحن بحجته فهم فطن بها يصرفها إلى أي

وجه شاء،» ، وعلى هذا فاللحن قول يتضمن معنى خفيا يتلقاه آخر دون إفصاح وإبانة.

ومن الملاحن التى تعتمد على فطنة المتلقى، ما ذكره الوزير الآبى من أن قبيلة طيئ «أسرت غلامًا من العرب فقدم أبوه ليفديه فاشتطوا عليه ، فقال أبوه : لا والذى جعل الفرقدين يمسيان ويصبحان على جبلى طيىء ما عندى غير ما بذلته ثم انصرف وقال : لقد أعطيته كلاما إن كان فيه خير فهمه .فكأنه قال : الزم الفرقدين على جبل طيىء. ففهم الابن تعريضه وطرد إبلا لهم من ليلته ونجا»[1].

لاحن الوالد ولده، وفطن الولد إلى فحوى لحن والده ، ودبر الحيلة وهرب ، أما أهل طيىء فلم يفهموا شيئًا ، وخسروا الغلام والفدية . وهذه عاقبة من لا يعرف مغزى اللحن.

ودونك هذا المثال الذى يظهر أن اللحن يمكن أن ينقذ وطنًا، وينجّى جيشًا من الهلاك ، وهذا يتوقف على شخص يتلقى اللحن ببديهة قوية وشدة نفاذ إلى ما وراء الكلام .

(١) الآبي : «نثر الدر» جـ٧ ط الهيئة العامة للكتاب.

فقد حكى عن ملك أنه رغب فى التجسس على عدو له فأرسل إليه جاسوسا محنكا، فلما دخل الجاسوس بلد العدو وجده قويا حصينا، بيد أن ملك هذه البلدة أحس به فقبض عليه ، ثم أمره أنه يحرر كتابا إلى من أرسله يفيده فيه بأنه وجد القوم ضعفاء ، ويزين له غزوهم ، وهدده بالقتل إن لم يفعل ذلك ، فامتثل وكتب يقول : «أما بعد فقد أحطت علما بالقوم وأصبحت مستريحًا من السعي في تعرف أحوالهم ، وأنى قد استضعفتهم بالنسبة إليكم . وقد كنت أعهد من أخلاق الملك المهلة فى الأمور والنظر فى العاقبة ، ولكن ليس هذا وقت النظر فى العاقبة فقد تحققت أنكم الفئة الغالبة بإذن الله وقد رأيت من أحوال القوم ما يطيب به قلب الملك نصحت فدع ريبك ودع مهلك والسلام ».

فلما وصل الكتاب إلى الملك وعرضه على حاشيته قويت قلوبهم ، أما هو فقد أنكر ظاهر اللفظ وفطن إلى ما في باطنه ، ورأى فى قول جاسوسه : أصبحت مستريحا من السعى أى أنه محبوس. وقوله: استضعفتهم بالنسبة إليكم يريد أنهم ضعفنا لكثرتهم. وقوله: إنكم الفئة الغالبة بإذن الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ﴾ ، وقوله : رأيت من أحوال القوم

ما يطيب به قلب الملك فإني تأملت ما بعده فوجدت أنه يريد بالقلب العكس ، لأن الجملة الآتية مما يوهم ذلك فقلبت الجملة وهي قوله : نصحت فدع ريبك ودع مهلك فإذا مقلوبها كلهم عدو كبير عدد فتحصن[1].

وكانت فطنة الملك دافعا له عن الإحجام عن الغزو، وإنقاذ جيشه من الهلاك المحتم .

ومما روى أنه «كان لشاعر عدوّ ، فبينما هو سائر ذات يوم فى بعض الطرق إذا هو بعدوه ، فعلم الشاعر أن عدوه قاتله لا محالة ، فقال له يا هذا: أنا أعلم أن المنية قد حضرت ، ولكن سألتك الله إذا أنت قتلتني أن امض إلى داري، وقف بالباب وقل: «ألا أيها البنتان إن أباكما» فقال : سمعا وطاعة ، ثم إنه قتله فلما فرغ من قتله أتى إلى داره ، ووقف بالباب وقال : «ألا أيها البنتان إن أباكما» ، وكان للشاعر ابنتان ، فلما سمعتا قول الرجل : «ألا أيها البنتان إن أباكما» أجابتاه بفم واحد «قتيل : خذا بالثأر ممن أتاكما» ، ثم تعلقتا بالرجل ، ورفعتاه إلى الحاكم ،

(١) مجلة الضياء للشيخ اليازجي . السنة السابعة جـ١ .

فاستقرره فأقر يقتله فقتله[1].

وربما كانت هذه الحكاية موضوعة ، لأن من يظفر بعدوه يقتله دون أن يكون بينهما هذا الحوار الرقيق والعهد الوثيق ، والاستجابة من القاتل لما يرغب فيه القتيل ، ثم إن القاتل بطبيعة الحال يقتل ويمضي لحال سبيله دون أن يلتزم بتنفيذ ما وعد به ، لأنه إذا كانت قد تمثلت فيه كل هذه الخصال ما قتل، ومع كل ذلك فإن هذه الحكاية اللطيفة تظهر أن اللحن

(١) السيد أحمد الهاشمي: «جواهر الأدب في أدبيات لغة العرب» جـ١. وهناك حكاية شبيهة بهذه الحكاية عن مهلهل، فقد جاء في كتاب «العمدة» لابن رشيق أنه لما غدر عبدا مهلهل به، وقد كبرت سنّه، وشق عليهما ما يكلفهما من الغارات ، وطلب الثارات، فأرادا قتله، فقال: أوصيكما أن تروبا عني بيت شعر ، قالا: وما هو؟ قال:

من مبلغ الحيين أن مهلهلا لله دركما ودر أبيكما.

فلما زعما أنه مات، قيل لهما: هل أوصي بشيء، قالا: نعم ، وأنشدا البيت المتقدم ، فقالت ابنته : عليكم بالعبدين ، فإنما قال أبي:

من مبلغ الحيين أن مهلهلا أمسى قتيلا بالفلاة مجندلا
لله دركما ودور أبيكما لا يبرح العبدان حتى يقتلا

فاستقروا العبدين فأقرا أنهما قتلاه ، ورويت هذه الحكاية لمرقش.

اللفظى أو الكتابى يعتمد على الفطنة الشديدة وقوة اللحظ دون قاعدة تحكمه ، أو علامات تظهره . وهذا الضرب من اللحن قد يخذل فى بعض الأحيان ، إذ ليس كل الناس يتمتعون بذكاء خارق ، وفطرة نقية .

***

ولكن ليس هذا هو الشكل الوحيد للملاحن ، فإن هناك أشكالًا أخرى منها ما يقوم على الاتفاق .

وهذا الضرب تتفق فيه جماعة معينة لها اتجاه محدد على رموز تكون وسيلتهم في التفاهم والتواصل والحوار ، ومن ثم يصعب على الآخرين أن يعرفوا ما تواطأت عليه هذه الجماعة إلا أذا أفشى أحد أفرادها سرها في ظروف قاسية، أو نجحت جهة في دس فرد على أفراد هذه الجماعة ووافها بالأخبار والأسرار، وغالبًا ما يلجأ المجرمون والجواسيس إلى التواطؤ فيما بينهم على رموز أو رسوم معينة حتى لا ينكشف أمرهم.

فقد يستخدم الجواسيس وبخاصة أثناء الحروب لحن الرسوم الرمزية لذكر أشياء تفيد جيوشهم، وتخفى على أعدائهم، ومن هذا ما فعله الجواسيس الألمان في الحرب العالمية الأولى، وذلك عندما رسموا على جدران المنازل والأبواب

صورة بقرة على أشكال مختلفة ، تارة رابضة ، وأخرى راكضة أو ممددة إلى غير ذلك ، وكل شكل منها في نظر الألمان الذين يأتون إلى تلك الجهات عبارة عن خبر أو استعلام يتعلق بتحركات الجيش المعادي طبقًا لاصطلاحات موضوعة[1].

وهذه الرسوم يصعب فهمها، والذكاء الإنساني يضل فى حل لغزها، لأنها مثل الشفرات التى تم التواطؤ عليها بين أناس وأناس ، لذلك تلجأ الدول إلى تجنيد جواسيس والزج بهم داخل أجهزة التجسس المعادية لمعرفة دلالة مثل هذه الشفرات والرموز المستغلقة ، وبغير هذا لا يمكن التكهن بما تعنى البقرة الواقفة ، والبقرة النائمة .

واللحن بالرسم لم يقتصر على الجواسيس ، وإنما شمل اللصوص والمجرمين كذلك ، وقد عرضت مجلة «الجامعة» دراسة للدكتور «هانس كروس» القاضي النمساوي عن لغة المجرمين ورموزهم السرية، جاء فيها هذا الرسم الذي سجله أحد اللصوص على جدار كنيسة) |||| ←—وهو عبارة عن سهم يشير إلى اتجاه البيت المزمع اقتحامه وسرقته، وأربعة خطوط رأسية تبين أن البيت الرابع خلف الكنيسة هو الذي

(١) مجلة الهلال. مارس ١٩١٥.

سيقع عليه الهجوم ، وهلال، والغرض منه أن السطو سيكون عند ظهور الهلال في السماء ، والعبارة هي: «إنه عازم حين طلوع الهلال على مهاجمة البيت الرابع الكائن وراء تلك الكنيسة ، وجاء تحت الرسم توقيعات المجرمين الذين فهموا هذه الرموز، وأظهروا رغبة فى المشاركة ، وكانت التوقيعات عبارة عن رسوم لعصفور وكشتبان ومفتاح وقِدْر وسلسلة . وهكذا ضمن اللص الكبير أن خمسة لصوص آخرين سيشاركون معه في اقتحام المنزل لسرقته عند طلوع الهلال ، وبذلك تقوم اللغة السرية سواء أكان رموزًا أم لحنًا أم شفرة بدورها في التخاطب والحوار.

وأظهرت دراسة د. هانس أن للمجرمين لغات أخرى يتخاطبون بها في السجون ، مثل : «القرع على الجدران» أو بالتصويت أصواتًا متقطعة معروفة المعنى عندهم ،أو بالكتابة على الورق بعصير الليمون الحامض ثم توضع الورقة على لهيب شمعة فيظهر الخط واضحًا ، أو بالكتابة بالبول أو باللبن ثم يذر على الورقة تراب فتظهر الكتابة»[1].

فمثل هذه الرسوم والأصوات لا يجدي في فهمها ذكاء أو فراسة، وما لم يكن هناك تواطؤ بشأنها بين هؤلاء القوم

(١) مجلة الجامعة لفرح أنطون عدد فبراير ١٩٠٠.

الشاذين، فلا أمل في إدراك مغزاها.

وعلى ذكر المسجونين ولحنهم الصوتي، وكتاباتهم على الورق بالبول وخلافه نذكر أن لهم كذلك سيمًا لفظيًا معروفا بينهم يتخاطبون به داخل السجن، وقد سجلت مجلة سركيس عددًا من مصطلحاتهم نوردها على النحو التالى:

صابك : انتظموا فى خط مستقيم

طويلك : حاسب (للتنبيه)

الدبش : السجان

ضرب عليه : سرق من جيبه.

أم على : جوزة الحشيش.

صون : آخر ورقة اللعب[1].

ومما يجدر ذكره أن سليم سركيس صاحب مجلة «سركيس» سجن فى سجن الحوض المرصود في أواخر القرن التاسع عشر بسبب انتقاده سياسة الملك غليوم الألمانى. ومن الجائز أنه تعرف على هذه الكلمات أثناء سجنه .

ومن الأدباء الآخرين الذين أحاطوا بمصطلحات المسجونين الأستاذ العقاد وذلك أثناء سجنه بتهمة العيب فى

(١) مجلة سركيس لسليم سركيس عدد أكتوبر ١٩٠٩.

الذات الملكية عام ١٩٣١. فقد ذكر فى كتابه «عالم السدود والقيود» بعضا من كلماتهم مثل :

العين : النار من ثقاب أو من غير ثقاب

الزمارة : السيجارة.

العربة : الحارس.

الكاركى : الذى يسجن لأول مرة .

وأرى أن اللحن اللفظى للمسجونين فى سجنهم لا فائدة منه لهم ، وذلك راجع لطول بقائهم فى السجن ، وعدم تجاوزهم له.

ومن المعروف أنهم يتحدثون بالسيم ليخفى مرادهم على حراس السجن وإدارته ، ولكن ملازمتهم للسجن وتكرير نطقهم لسيمهم يجعل حراس السجن ، بمرور الوقت يعرفون مصطلحات هذا السيم ودلالاته ، وإذا كان العقاد الذى سجن تسعة أشهر عرف سيم السجناء، ألا يعرف العسكر والقائمون بالحراسة والإدارة لحنهم.

لذلك فإنه يتساوى حديثهم الواضح مع حديثهم المعمى، ويظل السيم خفيا فعلا ما دامت الطائفة التى تتحدث به فى عزلة عن الناس ، أو قليلة الاختلاط بالمجتمع .